الموازنة

بين الالعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان

= ٦ =

ويقول دانتي في أغنيته الاولى من جهنم انه سأل فيرجيل كيف كان حضوره اليه في الغابة المهلكة وفي ذلك المقام المخيف ، فيجيبه فيرجيل ان بياتريس (وهو اسم معشوقته كما تعلم) قداستدعته من مقره واستحلفته ان يذهب و ينجد محبو بها و يسعف ملتمسه ، وان شفقتها على محبو بها هي عذرها في التماسها هذا منه ، وانها وعدته بالثناء عليه عند عودتها الى سيدها (ربها) . الاغنية الثانية من جهنم .

وفي الاغنية الثالثة يقول : ولما وصلنا (هو وفيرجيل) الى ساحل ذلك البحر الجهنمي ظهر لنا شيخ معمم (عمه الشيب) على سفينة وصاح بنا الويل لكنّ ايتهاالانفس الشريرة لا تترجين البتة في الرجوع الى رؤية السماء ، ها انا آت لاحملكن الى الشط الآخر في منطقة الظلمات والى وسط النيران المضطرمة والجليد الابدي ، وانت ايها الانسان الحي من هم الذين اتوا بك الى هنا ؟ أبعد عن الاموات الخ حينئذ قال له قائدي (اي فيرجيل) ياكارون لا تدافع ، : هكذا يريدون هناك حيث يقدرون على كل ما يريدون فلا تسأل شيئاً فوق هذا :

اما هي قصة ابن القارح مع رضوان والزهراء وجاريتها بعينها ؟ هذه في الفردوس ودانتي في جهنم والاسماء مختلفة فقط . وكما اجتمع ابن القارح في الفردوس مع جماعة من الشعراء الزنادقة ، فان دانتي يجتمع في جهنم مع أعاظم الشعراء الوثنيين وهم هوميروس وهوراس واوفيد ولوكان (او لوكانس) ، ولكن لم يجتمع بهم ليسألهم ان ينشدوه أشعارهم للتحقيق عنما نُقل عنهم في الادب او التاريخ ، بل ليعترفوا له بالفخر الذي هو به جدير ، و يعدوه سادسهم ، (وان لم يذكر اسم الخامس فهو قائده ومرشده فيرجيل)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانه مشى معهم حيناً نحو ذلك النور الساطع (في ظلمات جهنم) وانهم قد تحادثوا بما يحسن السكوت عنه في هذا الوقت ... وقد وجدنا انفسنا قرب قصر منيف محاط بسبعة اسوار يجري تحته نهر سلسبيل غير عميق ، قطعناه بسهولة ، ثم دخلنا الى ذلك القصر من سبعة أبواب (حكاية عدد السبعة) حتى وصلنا الى روضة رصعها نبت نضير رطب ... ثم يجتمع بطائفة من فلاسفة اليونان والرومان يذكر اسماءهم ، ويذكر اسم الرئيس ابن سينا وابن رشد واسماء بعض القياصرة وبينهم اسم صلاح الدين الايوبي . (الاغنية الرابعة من جهنم) .

بيد ان هذا الاجتماع وان حصل في جهنم ، فقد كان في قصر فخم منيف تحف حوله رياض وانهار ... (ونترك الكلام الآن على أمثال هذا الخلط الى الخاتمة) .

وكما صور المعري تلاعن ابن القارح والشياطين ولنناشد ابليس الزبانية ان يجذبوا ابن القارح الى اعماق جهنم وجوابهم له ليس لنا يا ابا زوبعة على اهل الجنة سبيل ... فان دانتي يقول في الاغنية السابعة :

.. وصاح بلوتوس بصوت أجش يا ابت ابليس ، يا ابت ابليس اجذبه ، ولكن قائدي الكريم قال لي لكي يعيد الشجاعة الى نفسي لا تخف شيئاً ، فانه مهما بلغ سلطانه لن يمنعك عن النزول الى هذه المنطقة ، ثم التفت نحو هذا الشيطان وصاح به ، اخرس يا ذئب اللعنة ، وانشق انت نفسك من غيظك فاننا لسنا ندخل دون غرض الى جهنم ، فانه هكذا يراد هناك ، حيث ميخائيل جازى الكبرياء القبيحة الخ الخ ..

وقد أورد مثل هذا في الاغنية الثانية والعشرين ولعلنا نلمح اليها في الخاتمة . وفي الاغنية الثامنة عشرة يذكر جسراً قديماً (في جهنم) وقف عليه مع مرشده ورأى عدداً عظيماً من اهل النار يتبعهم الزبانية متسلحين باسواط لامعة وهم يجلدونهم بها جلداً متناهياً في القساوة والغضب وبينهم شيخ عظيم الهيكل لا يظهر عليه اثر للألم ...

فكأنه يعيد لنا ما ذكره المعري عن بشار بن برد بلفظ مختلف واسماء اعجمية .

وفي الاغنية الرابعة والعشرين يذكر وصوله وقائده الى جسر ساقط متهدم وان قائده رفعه الى قمة صخرة وقال له تعلق شديداً بهذه البقية الباقية ولكن تحقق اولاً من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوتها الخ الخ . وهي حكاية الصراط في رسالة الغفران ، لكنها هنا مسرودة بصورة فقيرة واسلوب غثيث .

« في المطهر »

يجد عند باب المطهر شيخًا هو بواب المطهر يمنعه الدخول (قصة رضوان) و يعيد فيرجيل له القول عن امرأة نزلت من السماء وطلبت منه ان يأخذ دانتي في ظل حمايته ... ثم يقول له البواب ان كان ثمت امرأة سموية تحبك وتشجعك فلا حاجة بي الى مجاملتك ومديحك بل يكفيني ان تكلمني باسم المرأة التي ارسلتك .

وكأن دانتي اعاد قراءة رسالة الغفران ووجد انه لم يشر في أُلعوبته الى حكاية قصيدة ابن القارح في مدح رضوان عند دخوله مع فيرجيل الى الجحيم ومخاطبتهما البواب هناك ، فاستدرك ذكر ذلك مع بواب المطهر وجوابه له لاحاجة بي الى مديحك ومجاملتك . أوَ لا يقول الناقد المنصف عند هذا البرهان الناصع وأمثاله مما تقدم ذكره ما أشبه الليلة بالبارحة ، وقد برح الخفاء بالحجة الواضحة .

« في الفردوس »

في الاغنية الخامسة وقد انتقل الى الطبقة الثانية من طبقات الفردوس او السماء يرى نفسه مع بياتريس مع نسوة حسان نورانيات يدرن حوله وحول بياتريس راقصات يغنينه حتى تكاد بياتريس تسكر معه من انوارهن وغنائهن . وكأنه يعيد لنا بهذا المشهد عودة ابن القارح الى قصره في الجنة وقد حفت الحور بسريره الخ .

وفي الاغنية العاشرة وما بعدها تسأله بياتريس اوروح أُخرى (وتلك الأرواح لاتظهر له الا بصور نساء حسان نورانيات) أتريد ان تعلم ماهي الازهار التي تزين هذه الهالة التي تراها حول المرأة النورانية (بياتريس) ؟ ثم تبدأ فتسمي له علماء ورهباناً وقديسين وشهداء باسمائهم ، وتقول له هذا استحق الفردوس بكتابه كذا ، وذاك برسالته كذا ، والآخر بمؤلفه التأملات كذا ، كتوما الاكويني واغوسطينوس وكراتيانوس ، ودومينيكوس وغيرهم كثيرين ... وهو عين ماذكر في رسالة الغفران ، باختلاف في الاسماء والالفاظ عن شعراء الجاهلية . وفيما يأتي بعدها من الاغاني الفردوسية يذكر شجرة تحيي بمائها وتثمر دائماً ، ولا يسقط ورقها ، اما اثمارها فأرواح سعيدة كان لها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شهرة عظيمة على الارض قبل ان ترتفع الى السماء ... وهي بعينها شجرة ابن القارح في الفردوس تنفض من الجوز عدداً لا يحصيه الا الله ، تنشق كل جوزة عن اربع جوار يرقصن على ابيات الخليل فتهتز ارجاء الجنة ... ويخاطب النسر في الفردوس والنسر يجاوبه ، كما هو الشأن مع ابن القارح في مخاطبته الاسد وركوبه بعض دواب الجنة ، الى كثير من أمثاله . وآخر ما يسمعنا في فردوسه صورة ايمانه ، وليست من الشعر في شيء ، ولا من عجائب السماء ؛ ولا من الحوادث النادرة .

« خاتمة »

فاذا نظر الناقد المنصف بعين لا يطرفها ثوب العصبية ، وروح تجردت من درن الشعوبية ، فيما بسطناه في هذه الموازنة من البراهين ، وأجملناه من الادلة الناصعة ، حكم معنا حكماً لا مردود له ان الالعوبة الالهية هي بنت رسالة الغفران ، لا يسترها ما ألقاه عليها دانتي من جلابيب الظلمات ، وما لحفها به من السحب الكثاف المدلهمات ، ولا يواريها عن الاعين النقادة كثرة المنخفضات والمنعرجات ، ولا الاقواس الهندسية والاشارات الفلكية ولا ما أدمجه فيها من كثرة الاسماء الاعجمية والآلهة اليونانية ، ولا الحلة الشعرية . ولله در القائل :

(من رام طمس الشمس عمداً اخطا الشمس بالتطهين لا تغطى)

وكان الأجدر به لو أنصف ، ان يسمي ابا العلاء قائده ومرشده ، لا فيرجيل فهذا لا يد له في هذه الحكاية ، وان قيل ان ابا العلاء كان غريباً عنه في اللغة والدين ، قلنا ان فيرجيل لم يكن أقرب فيهما اليه . ولكن انّى له ان يشير الى اسم المعري وفي ذكره اسرع تنبيه الى فضيحة الالعوبة ، وهي التي كان يرى في نشرها اعلاء شأنه وخلود اسمه ، على انه ان كان قد فاته المجد في حياته ، فقد نال خلود الاسم كما توقع بعد وفاته . ثم ان شهرة فيرجيل وهو ابن أمته ، كانت كما هو معلوم قد طبقت الخافقين ، فرأى ان يستظل باسمه ، وفي ذلك له غاية الشرف وابعد مجال التضليل في اصل الالعوبة . ومع هذا فلعل دانتي كان اكثر انصافاً من كثير من علماء زمانه وقد كانوا ينسبون الى انفسهم اكثر كتب علومنا التي ترجمت الى لغتهم اللاطينية كما مر بك قبل هذا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بقي ان نشير في هذه الخاتمة الى مايعرض للناقد من الحيرة والدهشة بل من الدُوار عقب مطالعة الالعوبة الالهية والتبصر فيما اشتملت عليه من شتى الاغراض ، وتباعد منا حيها عن الموضوع الذي قصد له المؤلف حتى بات كل واحد من هـذه الاغراض غريباً في مكانه بعيداً عن بيئته ، وحتى باتت الالعوبة الالهية جديرة بان تسمى كناشة حكايات بيتية ، واخبار بلدية ، او مجموعة من شتى الأحداث ، او كشكولاً حوى معجماً صغيراً من الاسماء المشهورة والمجهولة ومباديء بعض العلوم ومنازعات قومية وآراء سياسية وفلسفية وشرعية ودينية وتاريخية وعلمية وشعرية ولغوية وشيئاً من علمي النبات والحيوان ومن عجائب المخلوقات بل اوهاماً وتخيلات وحماسة ، وكله متداخل بعضه في بعض بنظم شعري .

وقد يقول بعض فطيري الرأي ، انهـا لم تنل ما نالته من الشهرة البعيدة ، ولم يُعَدّ مؤلفها ثالث شعراء الافرنج ، الا لما نعده هنا عيباً ونحن نقول في الجواب على هذا ، ان الموازنة تقتضانا ان نشفع الاعتراض بالبرهان والنقد بالحجة المنطقيـة واليك البيان .

« للكلام بقية »

عضو المجمع العلمي

قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net